

الفكر السياسي الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨

د. ماهر الشريف

باحث وكاتب فلسطيني

ان الفكر السياسي الفلسطيني، هو جملة الافكار والآراء التي انتجتها وحملتها «النخبة السياسية» في المجتمع العربي الفلسطيني، قبل العام ١٩٤٨، والتي عبرت، من خلالها، عن فهمها لطبيعة الصراع الذي نشأ على الارض الفلسطينية والقوى الفاعلة فيه، وعن تصوراتها لسبل حل «العقدة» التي نجمت عنه. ولأن الفكر، وبخاصة في حقل السياسة، يبقى على علاقة وثيقة بالواقع، لا بدّ، في البدء، من القاء نظرة سريعة على ملامح الواقع الاقتصادي - الاجتماعي، وتلمس خصوصيته، التي عكست نفسها على «النخبة السياسية» الفلسطينية، وعلى الفكر الذي انتجته وحملته.

وعى «النخبة» ونهجها

لقد بقي المجتمع العربي الفلسطيني، طوال مرحلة الانتداب، يعاني من ضعف انتشار العلاقات الرأسمالية فيه، وتسوده العلاقات العشائرية والعائلية والولاءات المحلية. فاذا كانت علاقة التبعية الامبريالية كبحت، سلفاً، عملية الرسملة في فلسطين، فان نزوع الاقتصاد الصهيوني المتطور للسيطرة على مقدرات البلاد جاء ليحدّد هذه العملية بحدود جديدة، وهنا، بالتحديد، كمنّت خصوصية فلسطين. وبسبب ضعف انتشار العلاقات الرأسمالية، ظل المجتمع العربي الفلسطيني مجتمعاً ريفياً في الاساس، يشكّل الفلاحون الغالبية الساحقة من سكانه، وتقف على رأسه فئة اجتماعية صغيرة، مشكلة من كبار التجار والملّك العقاريين وممثلي العائلات المنتفذة من اشراف المدن، وتمارس تأثيراً سياسياً وايدولوجياً، شبه مطلق، على جماهير السكان. وقد تميّزت هذه القيادة بمحدودية وعيها وضيق أفقها، وبقي نهجها السياسي متأثراً بالدور الذي كان يلعبه أعضاؤها في الماضي بوصفهم وسطاء بين السلطة المركزية العثمانية من جهة، والجماهير الشعبية من جهة ثانية، حيث ظلت تتمسك غالباً، في نشاطها، بالاساليب الشرعية والدبلوماسية، وتسعى، حرصاً على مصالحها الطبقية، الى الحفاظ على علاقات جيدة مع سلطات الانتداب تقوم على أساس الموازنة بين الموقف الوطني من ناحية، والرغبة في الحفاظ على موقعها المتميّز في المجتمع من ناحية أخرى^(١). وبالرغم من ان قطاعات واسعة من الجماهير كانت تدين لها بولاء شبه كامل، إلا انها بقيت مفتقرة الى الخبرة في ميدان العمل الجماهيري، حيث ظلت تتحرّك، طوال عقد العشرينات، من خلال اطار قضايا، هو المؤتمر العربي الفلسطيني المستند الى الجمعيات الاسلامية - المسيحية، وظلت الاحزاب السياسية التي شكّلتها فيما بعد، خلال النصف الاول من عقد الثلاثينات، مفتقرة، بدرجات متفاوتة، الى التنظيم القاعدي، وقائمة على قاعدة الروابط العائلية والعشائرية والانتماءات المحلية الضيقة^(٢). واذا ما